النهضات القومية العامة

فى أوربا وفى الشرق

للأستاذ عبد الرزاق أحمد السنهورى

عميد كلية الحقوق ببغداد

المحاضرة الثانية*

الفاشية :

رأينا فى المحاضرة السابقة كيف قامت الفاشية والنازية سداً منيعاً أمام تيار البلشفية الجارف . ونقول فى هذه المحاضرة كلمة عن هاتين الحركتين ؛ وقد كتب الشيء الكثير عنهما ، ونحن لا نحاول الأحاطة بكل ما كتب ، بل نتوخى الايجاز الذى يقتضيه هذا المقام

يمكن أن نصف الفاشية بأنها رد فعل عنيف للحركة الاشتراكية التى قامت فى إيطاليا عقب الحرب الكبرى ،

* ألقيت فى بهو أمانة العاصمة ببغداد يوم ٨ أبريل سنة ١٩٣٦

وإن أراد تعليم المرأة قالوا ما بهذا أتى الدين ! وهكذا كانوا حجر عثرة فى سبيل كل مصلح حتى لعظم الخطب ، واشتد الكرب ، وأولو الأمر فى المسلمين إذ ذاك لم يكن يهمهم إلاّ شهواتهم وتفخيمهم الكاذبة ، ومظاهرهم الخادعة . أما الاتجاه الصحيح إلى ترقية رعيتهم وتثقيفهم ، وتنوير أذهانهم ، ونشر العدل بينهم فكانوا قلما يأبهون له . فهؤلاء وأولئك كانوا السبب فى أن يقف المسلمون هذا الموقف الذين شكونا منه من قبل

ومع هذا فتنبه المسلمين اليوم ، وسير حركات الاصلاح بينهم سيراً حثيثاً ، يدعونا أن نؤمل قرب اليوم الذى يتبوأون فيه مكانتهم اللائقة بهم . فاذا قارنت هذه النهضة الداخلية فى رقى الفكر السياسى عند الغربيين ، وتعديل نظرتهم نحو المسلمين كان من وراء ذلك كله نهضة جدية يبنى فيها المسلمون فى المدنية بناء صالحاً مصبوغاً بعقيدتهم وأفكارهم ، فنرى إذ ذاك فلسفة خاصة وثقافة خاصة ، وروحانية خاصة ، قد تلون المدنية الحديثة عامة بلون خاص غير لونها الحالى

أحمد أمين

وهددت مرافق الحياة فى هذه البلاد بالشلل والنضوب ، حتى أصبحت إيطاليا فى حالة لا تحسد عليها ، وحتى كادت وحدتها الوطنية تتفكك . فقام مؤسس الفاشية ، وكان اشتراكياً فى مبدإ أمره ، فوفق بين مبدئه الاشتراكى ونزعته الوطنية ، وأسس الحكم الفاشى قائماً على فكرة الوطنية ، معارضاً لفكرة الطبقات . وهكذا انتكست الاشتراكية فى ايطاليا ، ورجع مبدأ الوطنية للانتصار

فالفاشية ، كنظام من نظم الحكم ، ليست إلا مقاومة عنيفة للبلشفية . وهى ليست مقصورة على ايطاليا ، بل امتدت منها الى غيرها من البلاد ؛ فهى تسمى فى إيطاليا بالفاشية أو الموسولينية ، وتسمى فى ألمانيا بالنازية أو الهتلرية ، وتسمى فى تركيا بالكمالية وهكذا . وهى ، أين تسود ، تقف سداً منيعاً دون تفشى البلشفية .

ولما كانت الفاشية قد نشأت فى أول أمرها وترعرعت فى ايطاليا ، فنحن نبدأ بالفاشية الايطالية ، لننظر كيف نشأت ، ثم نستعرض المبادىء التى قامت عليها ، والوسائل التى تذرعت بها فى العمل ، والطرق التى اتبعتها فى التنظيم

نشأتها :

أما كيف نشأت الفاشية فى ايطاليا ، فلأجل أن نعرف ذلك يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء ، لنستعرض ايطاليا فى مبدإ الحرب الكبرى ، وهى مترددة هل تدخل الحرب الى جانب ألمانيا أو الى جانب الحلفاء . ثم تدخل الى جانب الحلفاء ، فتكاد تكتسحها الدول الوسطى ، وتعانى من أهوال الحرب ورزاياها ما يكاد ينوء بها . ثم يبسم الحظ للحلفاء ، فينتصرون وتنتصر معهم ايطاليا . ولكنها تخرج من الحرب فى حالة من الفوضى الاقتصادية والاضطراب المادى ، هى شر من الحرب . فالبلشفية قد تفشت فيها ، والعمال أخذوا يثيرون القلاقل والفتن ، والشعب ساخط غاضب على حكومته ، يتهمها بالضعف والعجز ، فهى لم تنل فى مؤتمر فرسايل من الأسلاب والغنائم ما يتفق مع الجهود والتضحيات التى اعتقدت ايطاليا أنها بذلتها أثناء الحرب ، ولا ما يتفق بنوع خاص مع طموح ايطاليا الفتاة ومطامعها الاستعمارية . فاذا أضفنا الى هذا كله أن النظم الدستورية والنيابية لم تكن قد تأصلت فى الحكومة الايطالية ، وأن روح الديمقراطية لم تكن قد استقرت فى الشعب الايطالى فى المدة القصيرة التى

ت عليه منذ استقلاله ، وأن هذه البلاد لم تنس بعدُ عهد
لحيات السرية ولا المؤامرات التي تدبر في الخفاء ، واذا عدنا
لاشارة مرة أخرى الى ما انتشر من الفوضى والاضطراب في
لبلاد بسبب تفشي البلشفية ، نستطيع بعد كل ذلك أن نتصور
و أن رجلاً جريئاً مغامراً ، ذا إرادة صلبة ، وعزيمة قوية ،
وطموح بعيد ، يقود طائفة من الفتيان تدفعهم حماسة الشباب ،
وحمية الوطنية ، وأحلام المجد والعظمة ، والأيمان العميق بمستقبل
الوطن ؛ نستطيع أن نتصور ، لو أن رجلاً بهذا الوصف ، ومن
ورائه الشباب المتوقد عزيمة وقوة ، برز الى الميدان ، وتقدم الى
شعب من الشعوب ، لينقذه من حالة الفوضى والاضطراب ،
ويعيد إليه مجده القديم ، ويسوقه إلى ساحات العظمة والمجد ،
فينال حظه من كل ذلك ، بعد أن أنكره عليه حلفاؤه بالأمس ،
فان هذا الرجل لابد أن يقابل بالترحيب ، ثم بالاعجاب ، ثم
بالتحمس . وأنه لا بد واجد من هذا الشعب جنوداً يبذلون
نفوسهم في سبيل تحقيق هذه الغايات الوطنية الشريفة . وقد كان
الشعب ، وكان الرجل . أما الشعب فهذه الأمة الايطالية الشابة
الفتية ، الحساسة المسرفة في الحساسية ؛ وأما الرجل فهو
موسوليني ، بطل الفاشية وزعيمها الأكبر

وقد بدأت الفاشية ، بعد زحف موسوليني على روما وقبضه
على ناصية الحكم بالقوة ، حكماً تجريبياً ، ليست له خطة مرسومة
ولا مذهب مقرر . وكان موسوليني في مبدإ أمره اشتراكياً
متحمساً ، ثم انقلب جندياً باسلاً ، ورجع وطنياً غيوراً . وصار
من اعتنق الاشتراكية وآمن بمبادئها ، ثم الاشتراكية
وخصمها الألد . وتقدم موسوليني الى الحكم وليست له خطة
مرسومة كما قدمنا ، إلا اذا كانت الرغبة الملحة في الاصلاح
وإعادة مجد الوطن يصح أن تسمى خطة . فالفاشية بدأت تجريبية
شعارها العمل ، والعمل الايجابي العنيف في سبيل الاصلاح
الوطني . لذلك اشتهرت الفاشية بصبغتها العملية ، وباقدام
رجالها ، واقتحامهم أشد الأخطار هولاً ، دون تردد ولا هوادة .
فالقضية عندهم هي بعث الأمة الايطالية من جديد . أما المبادىء
والنظريات فقد كان موسوليني يسخر منها ، ويرى أنها سلاح
خطر ، قد يرتد الى صاحبه فيرديه . فالبلشفية قد بدأت إذن عملاً
لا مبدأ ، وحركة لا فكرة . ولم يكن لديه منهج مرسوم يريد
تحقيقه . ويوم ارتقى موسوليني منصة الحكم لم يكن لديه الا ارادة
وعزيمة ، فأكب على العمل بهذه الارادة وهذه العزيمة ، واضعاً
نصب عينيه مجد الأمة الايطالية وعظمتها

ثم أخذت الفاشية تمر بمراحل متعاقبة من التجارب العملية
زهاء عشر سنوات . تهذبها الأحداث ، وتنضجها الأيام .
وتطورها مقتضيات الضرورة ، حتى استنار طريقها ووضحت
معالمه . وارتسمت الفاشية مبادىء ينتظمها مذهب معروف
مقرر . وصارت نظاماً عالمياً له نظرياته وقواعده . وسرت مبادئها
من بلد الى بلد . ودخلت في دور علمي فلسفي ، تقرر نظرية
للدولة ، ونظرية لعلاقة الفرد بالمجموع ، ونظرية لأثر العوامل
الاقتصادية في الحالة السياسية ، ونظرية لعلاقة المسائل الروحية
بالمسائل المادية ، ونظرية للتربية والتعليم . ولكن الفاشية
بقيت محتفظة بصبغتها العملية الأولى ، فهي تبدأ بالوقائع تبحثها
وتحللها ، ثم تصوغها بعد ذلك نظريات سياسية واقتصادية ، بخلاف
البلشفية فانها تبدأ ببسط النظريات ، ثم تطبقها بعد ذلك على الوقائع

ولننظر إلى الفاشية كمبدأ علمي فلسفي ، وكنظام عملي من
نظم الحكم القائمة . فالفاشية بهذا الوصف لها مبادئ تقوم
عليها ، ووسائل للعمل ، وطرق للتنظيم

مبادئها :

أما المبادئ التي تقوم عليها فتتلخص في عبارة واحدة هي
« مجد الوطن وعظمته » . فالفاشية حركة تقوم على القومية ،
وتعادي كل نزعة من شأنها أن تكسر حدة الوطنية . أما الجامعات
الدولية كالبلشفية فتحاول أن تحقق اتحاد العمال في جميع أنحاء
العالم ، وكعصبة الأمم تحاول أن تدمج القوميات في جامعة واحدة ،
فالفاشية تعادي بعضها ، وتنظر إلى البعض الآخر نظرة المرتاب ،
فالوطن ، والوطن وحده ، هو الذي تخصص له الفاشية جهودها

فهي حركة وطنية تقوم في وجه البلشفية ؛ أي أن الرابطة
التي تقوم على فكرة الوطن لا تزال تجاهد في أوروبا جهاد المستميت ،
وهي في كفاح عنيف مع الرابطة التي تقوم على فكرة الطبقات

وسائلها في العمل :

وللفاشية وسائل للعمل . وتتلخص هذه الوسائل في قيام
أقلية صالحة باعباء الحكم . فهناك هيئتان : الهيئة الحاكمة ،

والهيئة الحكومة . ويجب أن تتضامن هاتان الهيئتان تضامن أعضاء الجسم الواحد . أما المساواة الديمقراطية فلا تعترف بها الفاشية . إذ الناس فى الواقع من الأمر غير متساوين ، وهم يتفاوتون فى القوة والكفاية والصلاحية ، ولا عبرة بالمساواة النظرية ما دامت المساواة الفعلية غير متحققة . وقد رفع الله الناس درجات بعضهم فوق بعض ، فيجب الاعتراف بهذه الحقيقة والأذعان لها . وتستخلص الفاشية من ذلك أن فى الأمة أقلية صالحة للحكم ؛ ومعيار الصلاحية الكفاية وتغليب المصلحة العامة والقدرة على تحقيقها . وهذه الأقلية هى التى يجب أن تحكم . وهى لا تستمد سلطانها من انتخاب الهيئة المحكومة لها ، ولا من ثقة هذه الهيئة بها ، بل تستمده من كفايتها وقدرتها على القيام باعباء الحكم . وترتب الفاشية نتيجة خطيرة على ما تقدم ، فهى تبيح الثورة على الحكومة العاجزة ، إذ المبرر لبقاء الحكومة فى الحكم إنما هو كفايتها ، فاذا انعدمت هذه الكفاية ، انعدم حقها فى البقاء ؛ فاذا بقيت بالرغم من ذلك ، وجب الانتقاض عليها ، ونزعها من كراسيها . وقد طبقت الفاشية هذا المبدأ عملياً ، قبل أن يتقرر مبدأ نظرياً ، عندما زحفت على روما ، وقبضت على ناصية الحكم بالقوة

على أن هذه الأقلية الحاكمة التى تتميز بالكفاية ، تتدرج هى الأخرى فى السلطان حسب درجة كفايتها . فالكفاية هى الكرسى الذى يتركز عليه الحكم . وتعلو طبقة فوق طبقة . وتخضع الطبقة الدنيا للطبقة العليا ، حتى ينتهى الأمر كله إلى زعيم واحد ، تلقى فى يده أزمة الحكم ، وترجع إليه كل الأمور ، فيفرض ارادته على أفراد الهيئة الحاكمة ، كما تفرض الهيئة الحاكمة إرادتها على أفراد الهيئة المحكومة . وبذلك يقوم ركن الدولة على أسس متينة ، وترجع الأمور كلها إلى رأى واحد ثابت لا يضطرب ، ويتوطد سلطان يخضع له الجميع ويذعنون لارادته . فالفاشية ، كما قال بعض الكتاب ، تبدأ بتغليب الجماعة على الفرد ، ولكن الجماعة تندمج فى الأمة ، والأمة تندمج فى الدولة ، والدولة تندمج فى الحكومة ، والحكومة تندمج فى الزعيم

ومن هنا ندرك أن الفاشية هى من أشد ضروب الدكتاتوريات تركيزاً للسلطة ، وأبعدها عن النظام الديمقراطى ، فالديمقراطية تقوم على سلطان الأمة ، وعلى الحرية والمساواة ما بين الأفراد . أما الفاشية فتنكر سلطان الأمة ، وتقيد من الحرية ، ولا تعترف بالمساواة ما بين الأفراد . ولا يعبأ موسولينى ، وهو قابض على ناصية الحكم ، أوثق به الشعب الايطالى أم لم يثق ، فهو لا يستند إلى هذه الثقة ، ولا يستمد سلطانه من سلطان الأمة ، وإنما يستمده من كفايته للحكم وقدرته على تحقيق المصلحة العامة ، وسواء عليه لو أن الاثنى عشر مليوناً من الناخبين أعطوه أصواتهم أم لم يعطوه شيئاً . وقد صرح السكرتير العام للحزب الفاشى بهذه الحقيقة فى عبارة جارحة ، إذ يقول : « لو أن الاثنى عشر مليوناً الذين قالوا نعم تحولوا إلى أربعة وعشرين مليوناً قالوا لا ، لما سير هذا من الأمر شيئاً ، ولبقى موسولينى فى قصر فينيسا ، ولبقيت ثورة القمصان سائرة فى طريقها . . . ولو قدر أن يصوت أربعة وعشرون مليوناً ضد الفاشية ، لكان هذا معناه أن جمهور الناخبين قد أصيبوا بالجنون ، وأن البلاد الايطالية قد أصبحت مستشفى لهؤلاء المجانين ، ولكان هذا سبباً أدعى لأن يبقى العقلاء فى أماكنهم »

وتختلف الديمقراطية عن الفاشية أيضاً فى أنها تركز السلطان فى الأمة ، وتقيم الدولة على سلطان الأمة ؛ فالأمة هى التى تنشىء الدولة . أما الفاشية فتذهب الى العكس من ذلك . وعندها أن الدولة هى التى تنشىء الأمة ، وأن الأمة ليس لها أى سلطان ، بل ليس لها وجود قانونى ، والسلطان كله للدولة . وقد كتب موسولينى فى هذا المعنى فى دائرة المعارف الكبرى الايطالية التى أمر بوضعها ، يقول : « ليست الأمة هى التى تخلق الدولة ، بل الدولة هى التى تخلق الأمة ، وتعطى للشعب الذى يشعر بوحدته الأدبية ، ارادة فوجوداً قانونياً » . وتقضى المادة الأولى من دستور العمل الفاشى بأن الأمة ، وهى وحدة أدبية وسياسية واقتصادية ، تتحقق فى الدولة

فالفاشية تقوم إذن على تقديس السلطة ، وعبادة الدولة ، أى الهيئة الحاكمة وشعارها فى الحكم : العمل الايجابى . فهى لا تقنع للدولة بموقف سلبى ، يقر الأمور دون أن يسيرها ، بل يجب على الهيئة الحاكمة أن تدفع الأمور دفعاً إيجابياً عنيفاً ، فى غير رفق ولا هوادة . وهنا تظهر نزعة الشباب والفتوة التى تميز الحركة الفاشية ، فقد كان أكثر القائمين بها شباناً عندهم طموح وهمة ، وفيهم اندفاع وتوثب